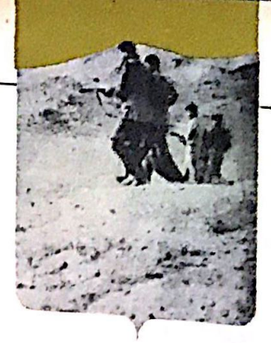

الانتفاضة المسلحة والماركسية اللينينية

منذ أن قررت الامبريالية الخلص من مخلفات المقاومة كمدخل لمرسم الحلول الملائمة لاهوائها ، والمؤامرات تحاك في كل مكان ، وتجند تعطيلات الضغط ، والحصار والقمع ، والصفة المادية ، والارهاب الفكري ، والتحليل الدماغوجية الدعائية ، ومختلف أساليب الحرب النفسية . وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ رأت الامبريالية ان الوضع العربي والدولي ملائم لتقديم حجر من احجارها على رقعة الشرق الاوسط ، فدفعت قوات الثورة المضادة لمهاجمة مراكز قوى الثورة الفلسطينية على نطاق واسع . وكانت أحداث أيلول (سبتمبر) ذروة من ذرى توتر الازمة بين قوى متناقضتين بالهدف الاستراتيجي – اذ تطرح احداهما استراتيجية التحرير على حين تطرح الاخرى استراتيجية الاستسلام على حساب المصالح الحيوية للاولى – ولكنها لم تكن الذروة الاولى ، ولن تكون الاخيرة .. وعلى الاحداث سلسلة من التعقيدات والاتهامات والمزايدات وطرحت أسئلة متعددة حول أخطاء المقاومة ، وماهية الصدام وأسبابه ، والموقف العربي وخلفياته ، وكان من أهم الاسئلة المطروحة بصورة معصودة : هل كان توقيت الصدام ملائما ؟ ولماذا لم تؤخر المقاومة تلويح الصدام لسنة الى أعمالها الاساسية ضد العدو الاسرائيلي ؟ وليس هناك سؤال اكثر خبثا أو اشد بحثا على الحقيقة من هذا السؤال . لانه سجاهل – عن قصد – حقيقتين : أولاهما نظرية تتعلق بطبيعة التناقض الاسرائيلي بين القوتين ومكانيكية الصدام في حالة وجود مثل هذا التناقض ، والثانية عملية ناجمة عن ان قوى الثورة المضادة هي التي حددت ساعة الصفر وبدأت هجومها الشرس ، الذي دفع المقاومة الى الرد الثوري بانتفاضة مسلحة ذات طبيعة استراتيجية دفاعية ، لا تخلو من استخدام الكتائب الهجومية .

وستصنف التاريخ المقاومة عندما تقتنم أحداث أيلول (سبتمبر) بصورة بعيدة عن الهوى والمبالغات ، ولكنه سوجه لها شيئا من النقد ، وكان بودي ان أشارك بهذا التقييم وذلك النقد ، ولكن ضرورة استكمال المعلومات المتعلقة من شهود الاحداث ، وانتظار اللحظة الملائمة لطرح مثل هذه الامور تدفعاني الى الربث في المرحلة الحاضرة . بعد ان استمرار الثورة المضادة في السير لتنفذ مخططاتها ، وتحمله الحرب النفسية التي تلف الاحداث ، وتناقض الافكار وتعوضها حول الازمة – حتى في داخل بعض الفصائل المقدمة الثورية – تجعل من الضروري تقديم القاعدة النظرية الماركسية – اللينينية ، الى ساعد على فهم الامور بشكل أوضح .

ولم أجد لذلك أفضل من العودة لكتابات الشيوعيين ومعاناتها الثورية وتقديم ملخص لفصل « اللينينية والانتفاضة » وهو أحد فصول كتاب سوسرغ المعروف « الانتفاضة المسلحة » – الذي صدر بالالمانية في عام ١٩٢٨ بعد المد الثوري الذي شهدته أوروبا والصين على اثر الثورة اللينينية . ثم أصدره الفرع الفرنسي للاممية الشيوعية باللغة الفرنسية في عام ١٩٣١ ، وتعود دار الطليعة في بيروت باعداده للصدور باللغة العربية لاول مرة .

الانتفاضة المسلحة جزء من الثورة

لقد حرك اسهازيو الاممية الثانية عددا كبيرا من الافكار والمفاهيم المتعلقة بالدولة ، والثورة ، والعنف ، والسلطة . والديكتاتورية ، والصراع الطبقي ، وغيرها . ولم يعلم هؤلاء الانتهازيون رغم تجربة كومونة باريس حقيقة الصراع وطبيعته . وكثيرا ما أسعد ماركس وأنجلس أفكار الاممية الثانية بهذا الصدد ، ثم جاء لينين بعد ذلك لهاجم المحرفين ويؤكد افلاس الاممية الثانية وسقوط أفكارها الانتهازية الوقحة .

وتحدث لينين منذ عام ١٩٠٢ (انظر كتاب ما العمل) عن ضرورة الاستعداد لانتفاضة مسلحة واسعة النطاق . وفي عام ١٩٠٥ ، نضجت الظروف بشكل أفضل ، فعمل كل ما في وسعه لتثبيت بأن الانتفاضة المسلحة هي أكثر أشكال النضال حدة وحسما في فترة الثورة .

وعندما وضع لينين تقييم انتفاضة موسكو في دسمبر (كانون الاول) ١٩٠٥ هاجم جملة للمخانوف الشهيرة « لقد كان علينا ان لا نحمل السلاح » ، وانتقد هذا الموقف المخاذل وأكد ضرورة النضال العنيف بقوله :

« لقد كان علينا ان نحمل السلاح بقسط أكبر من الحزم والفاعلية والروح الهجومية . وكان علينا ان نفهم الجماهير استحالة الاكتفاء بالاضراب السلمي ، وضرورة الصراع المسلح العنيف بلا خوف ، وعلينا اليوم ان نقوم بأكبر تحريض ممكن لصالح الانتفاضة المسلحة ، دون ان نخفي هذه المسألة بحجة أنها غير محببة ، ودون ان نلقي عليها أي غطاء . ان تضليل الجماهير باخفاء ضرورة أخرب العنف الدامية المدمرة كهدف مباشر للهجوم المقبل لا يعني سوى خداع أنفسنا وخداع الشعب » (١) .

شروط سن الانتفاضة ونجاحها

ولقد رد لينين على محرفي ثورة الماركسية كالمناشفة والاشتراكيين – الثوريين وغيرهم ممن ايهموا البلاشفة باللانكية ، ووضع خلال رده في عام ١٩١٧ الصفة العقيدية لمسألة الانتفاضة المسلحة وشروط نجاحها :

« ولكي تكلل الانتفاضة بالنجاح لا بد لها من ان تستند كل الاستناد على الطبقة المتقدمة ، لا على المؤامرة والحزب فقط . وهذه هي النقطة الاساسية الاولى . وعلى الانتفاضة ان تعتمد على الاندفاع الثوري للشعب . وهذه هي النقطة الاساسية الثانية . ولا بد من اندلاع الانتفاضة في ذروة صعود الثورة ، أي في اللحظة التي تصل فيها نشاط طليعة الشعب الى اكبر حدوده ، وتكون تردد أعداء الثورة وأصدقائها الضعفاء غير المصممين قويا جدا . وهذه هي النقطة الاساسية الثالثة . ان طرح هذه الشروط الثلاثة الخاصة بالانتفاضة هو الذي يميز الماركسية عن البلانكية في هذا المجال » (٢) .

وهكذا شرح لينين شروط الانتفاضة الظافرة بشكل موجز وعام . ثم كتب في عام ١٩١٧ « رسالة الى الرفاق » درس فيها الفروق بين الماركسية والبلانكية بالنسبة لمسألة الانتفاضة . وكانت دراسة هذه المرة أكثر واقعية وأشد تفصيلا ، وقال فيها :

« وتعتبر المؤامرة العسكرية جزء من البلانكية اذا لم تنظم من قبل حزب طبقة محددة ، واذا لم تقدر منظموها بكل دقة الموقف السياسي بصورة عامة ، والوضع الدولي بصورة خاصة ، ولم تكونوا من يحظون بعاطف غالبية الشعب (المؤكدة بالاحداث الملموسة) ، واذا كانت مسيرة الثورة لم تحطم بعد وهام البورجوازية الصغيرة وآمالها حول امكانية وفعالية التحالف بين الطبقات ، واذا لم تستقطب منظمو المؤامرة الانتفاضة داخل أجهزة الصراع الثوري ... واذا لم يكن في الجيش (خلال الحرب) روح عدائية محددة ضد الحكومة الى تظل أشد الحرب غير العادلة رغم ارادة الشعب ، واذا لم تحتل شعارات الانتفاضة (مثل « كل السلطة للسوفيتات » ، و « الارض للفلاحين » ، و ... الخ) بالاستثمار الواضح والمحدد الكاملة . واذا لم يؤمن العمال المتقدمون بالتنظيم الذي تمتلكه الجماهير ، ولم يتأكدوا من دعم الريف (وهو دعم يمثل بحركة فلاحية قوية او ثورة عارمة واسعة النطاق ضد الملاكين والدولة التي تدعمهم) ... » (٣) .

وفي كراس « افلاس الاممية الثانية » كتب لينين في تموز ١٩١٥ ما يلي :

« ويرى الماركسي ان الثورة غير ممكنة اذا لم يتوفر الوضع الثوري . ولكن كل وضع ثوري لا يؤدي الى الثورة . فما هي دلائل الوضع الثوري؟ من المؤكد اننا لن نخطئ اذا ما حددنا الدلائل الثلاثة التالية :

١ – وجود الطبقات الحاكمة في وضع يستحيل عليها به الحفاظ على سلطتها الكاملة ، ان « أزمة » داخل الاوساط الحاكمة ، او أزمة سياسية في الطبقة التي تمارس السلطة تخلق تفرقة تسرب منها بعض الطبقات المستوعبة وسخطها . ولا يكفي لقيام الثورة عادة ان « لا تعود الوضع في الطبقات الدنيا مقبولا » بل لا بد من ان يصبح من المتعذر العيش في الوضع السابق .

٢ – تزايد حرمان الطبقات المستوعبة وآلامها بشكل غير طبيعي .

٣ – تزايد نشاط الجماهير التي تسمح للاخرين نهبها « في حالة السلم » ، ولكنها تندفع في فترة الاضطراب تحت تأثير الازمة ، وتدفع من الزعماء ، لتأخذ المبادرة وتبدأ عملا تاريخيا .

فاذا لم تتوفر هذه التعديلات الموضوعية المستقلة عن ارادة المجموعات المنعزلة والاحزاب والطبقات تصبح الثورة بصورة عامة مستحيلة . وتشكل مجموع هذه التعديلات الموضوعية الوضع الثوري . ولقد وقع وضع مماثل في روسيا (١٩٠٥) ، وفي كافة البلاد الغربية خلال حقبة الثورات . كما وقع وضع مماثل في ١٨٥٩ – ١٨٦٠ في المانيا ، وفي ١٨٧٩ – ١٨٨٠ في روسيا ، ومع هذا لم تندلع الثورة آنذاك في هذه البلاد . فلم كان ذلك ؟ لان كل وضع ثوري لا ينبثق عنه بالضرورة ثورة عارمة . ولان هذه الثورة لا تندلع الا اذا أضيف الى العوامل المذكورة سابقا عامل ذاتي هو : استعداد الطبقة الثورية للعمل الثوري ، وأهلية الجماهير القوية لدرجة تجعلها قادرة على هز الحكومة القديمة أو تحطيمها . ولا تسقط الحكومة القديمة ، حتى في ذروة الازمة ، « اذا لم تجد من يسقطها » » (٤) .

ولقد أكد لينين على أهمية المتطلبات الاجتماعية والسياسية لنجاح الانتفاضة الثورية ، وكان يعلق أهمية بالغة على المتطلبات التي تحدد نضج الوضع الثوري الذي يفرز المسائل التاريخية مثل : ضرورة الاتجاه نحو الانتفاضة فورا او الانتظار حتى تتم تعبئة الجماهير ثوريا ، بغية العمل في لحظة اكثر ملاءمة .

ولا تعتبر الماركسية – اللينينية الانتفاضة عملا عسكريا منعزلا عن مجمل الصراع الطبقي . وهي تعتبره على العكس امتدادا عضويا لهذا النضال . وتطالب الحزب الطليعي الثوري ان يستخدم كل نشاطاته الدعائية والنضالية اليومية لاعداد الجماهير وتعبئتها استعدادا لتنفيذ الانتفاضة المسلحة .

ويقول برنامج الاممية عن شروط النضال لقلب سلطة البورجوازية :

« عندما يكون هناك مد ثوري ، وعندما تتزايد الطبقات الحاكمة للفوضى ، وعندما تتمزق الجماهير حاله التخمر الثوري ، وتميل الفئات الوسطى المتذبذبة نحو البروليتاريا ، وتتضح تصبح من واجب حزب البروليتاريا قيادة الجماهير تغدو الجماهير مستعدة للعمل والتضحية المباشر ضد الدولة البورجوازية . ويمكن الوصول الى هذه النتيجة عن طريق استخدام الشعارات المرحلة ذات الفعالية المتزايدة .. وتتلخص أعمال الجماهير » .. « وتضم أعمال الجماهير ما يلي : الاضرابات والاضرابات مع التظاهرات العادية أو المسلحة ، الاضراب العام بالتزامن مع الانتفاضة المسلحة ضد سلطة البورجوازية . وتعتبر الانتفاضة المسلحة أعلى أشكال النضال . وهي تعتمد على قواعد الفن العسكري ، وتتطلب وجود خطة عسكرية ، وتحمل الطابع الجبري للعمليات الحربية ، وتتطلب من البروليتاريا تضحية وبطولة لا حد لها . ومن الدهاء الشك ، وتشترط مثل هذه الاعمال في تنظيم الجماهير القائل العريضة داخل وحدات قتالية تضم وتحرك اكبر عدد ممكن من الكادحين .. بالاضافة الى عمل ثوري دؤوب داخل الجيش والاسطول .

وعند الانتقال الى شعارات جديدة اكثر دقة ، ينبغي السير على هدي القاعدة الاساسية للكتيك اللينيني ، وهو معرفة السبيل الاقرب لدفع الجماهير نحو المواقع الثورية بشكل تتفق معه هذه الجماهير بفضل تجربتها الشخصية من صحة خط الحزب . ويقود عدم اتباع هذه القاعدة حتما الى الابتعاد عن الجماهير والسقوط في الانغلاقية ، وانحطاط الايديولوجية الثورية الى درك الدوغماسية السارية ، أو « المغامرة » الثورية البورجوازية الصغيرة . ومن الخطر أيضا عدم استغلال نفقة ذروة الوضع الثوري التي تتطلب من الحزب البروليتاري القيام بهجوم حاسم بالغ الجرأة ضد العدو . ان ترك هذه اللحظة الحرجة تمر دون شن الانتفاضة ، يعني اعطاء المبادرة للخصم ، وتعريض الثورة للهزيمة » (٥) .

تقسيم درجة نضج الوضع الثوري

ان تحديد شروط نجاح الانتفاضة وظروفها من الناحية النظرية أمر هام . ولكن هناك ما هو أهم : وهو تقييم درجة نضج الوضع الثوري من الناحية العلمية . وتقول التجربة ان تحديد تاريخ بدء الثورة امر بالغ الصعوبة اذ قد يجد الثوريون تحت تأثير اندفاع الصبر الثوري أو ارهاب الطبقات الحاكمة او استفزازاتها فيبادرون العمل قبل الاوان ، ويفشل الانتفاضة ، او انهم يقللون من قيمة الوضع الثوري فتضيع الفرص الملائمة لانتفاضة ناجحة .

لقد بدأ البلانكيون انتفاضة باريس في عام ١٨٧٠ بصورة مبكرة فكانت النتيجة أن هزموا . وعندما نوقشت مسألة الاستيلاء على السلطة في عام ١٩١٧ داخل الحزب البلشفي عارض زينوفييف وكامينيف واخرون أفكاره بحجة عدم تنويم الجماهير ، واحتفاظ البورجوازية بقوتها .. الخ وان على البلاشفة الانتظار . ولكن لينين رد ان اللحظة ملائمة والوضع ناضج ثوريا في النضوج ، وانتصر رأي لينين ، وانتصرت الثورة ولو سار البلاشفة على خطى زينوفييف وكامينيف لتأخرت الثورة في روسيا الى طريق مسدود .

وهكذا فان البدء بصورة مبكرة (البلانكيون في باريس) خطر مثل التأخر وترك الفرصة الملائمة تمر دون استغلالها (محاولة زينوفييف وكامينيف في روسيا) . والنجاح مرهون بتقريب وتعميق القيادة على تحسس درجة النضج بشكل صحيح . ويقدم لينين مثالا على ذلك . ففي تموز (تموز) ١٩٧٠ كانت جماهير بتروغراد تريد قلب الحكومة المؤقتة ولكن الحزب البلشفي بقيادة لينين حذرها بقوله « ان الوقت لم يحن بعد » . وما ان جاء سبتمبر (أيلول) وأكتوبر (تشرين الاول) حتى بدلت الامور وأعلن لينين على الملأ « اليوم او أبدا ! ان الثورة مهددة لخطر الموت ! » . فما الذي دفع البلاشفة الى هذا التغير ؟ يحدد لينين الاسباب التي أدت الى هذا التحول في مقال « الماركسية والانتفاضة » بما يلي :

١ – لم يكن الحزب في يوليو (تموز) قد نال الطبيعة الطليعية معه . كما لم يكن قد كسب أغلبية العمال والجنود . ولم يكن الحزب حتى كان يملك أغلبية العمال والجنود في سوفييتات موسكو وبتروغراد .

٢ – ارتفع الحماس الثوري بعد مغامرة كورنيلوف .

٣ – ازداد تردد الاعداء وتردد البورجوازية الصغيرة المتذبذبة . وفقد العدو كثيرا من قواعده الشعبية .

٤ – لم يكن الحزب في يوليو (تموز) يملك القدرة المادية للحفاظ على السلطة لان العمال والجنود لم يكونوا قد وصلوا الى حالة « الحنق الجارف » التي وصلوا اليها بعد ذلك ، كما لم يكونوا قد تضرسوا وسط الاهوال والمعارك وعمليات القمع .

٥ – لم يكن الحزب في يوليو (تموز) يملك القدرة السياسية للبقاء في السلطة لان الجيش كان مستعدا – قبل عملية كورنيلوف – للسير ضد بتروغراد .

٦ – لقد وصل الشعب الى قناعة تامة بان كله الاشتراكيين – الثوريين لن تعطي الارض للفلاحين .

ثم ينهي لينين تقييمه بقوله : « ان انتصارنا محقق لا ريب فيه لان الشعب وصل الى مرحلة دفع معها كل أمل . ونحن نقدم له المخرج الصحيح » (٦) .

ويؤكد كل هذا أهمية تقييم الظروف السياسية قبل شن الانتفاضة . وضرورة الاحساس باقتراب اللحظة الملائمة ، وانتهازها فور قدومها دون تأخير والا تعرضت الثورة كلها للفشل .

أخطار الانقلابية

تقدم لنا أحداث مارس (آذار) ١٩٢١ في المانيا مثالا عن الخطأ في تقدير الموقف وتحديد تاريخ الانتفاضة . فلقد تم تبرير أحداث مارس من الناحية النظرية ، استنادا الى نظرية الهجوم أي نظرية « الانقضاض الثوري » القائلة : « بما أن الحرب الامبريالية ١٩١٤ – ١٩١٨ وثورة أوكتوبر افتتحتا عصر الثورات فان التكتيك الوحيد هو الانقضاض لقلب البورجوازية » .

ولقد أدان المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية هذه النظرية ، واعتبرها تمثل نظرية انقلابية خاصة وأنها تجاهل المبدأ اللينيني الذي يؤكد بان الرأسمالية قادرة ، حتى في فترة تحللها ، على القيام بقفزات مؤقتة علينا خلالها بديل تكتيك الانقضاض الثوري بتكتيك آخر أكثر ملاءمة ، ولكنه لا يقل ثوريه عن تكتيك الانقضاض .

ولا يجب أن نفهم بأن وجود الحزب الثوري ومشاركة الطبقة العاملة في الانتفاضة تنفي عنها فكرة الانقلابية ، أو أن الانقلابية محصورة على أعمال الجيش لنفس الانظمة بضربات مفاجئة . كلا ، فالانقلابية بمعناها العلمي الواسع هي المبالغة في تقييم الوضع الثوري ، والاعتماد على قوة صغيرة (نخبة) لتبديل الاوضاع بسرعة اعتمادا على ان الجماهير المستوعبة ستؤيد هذه العملية بعد وقوعها . ولقد وقع الحزب الشيوعي في هذه الخطيئة القاتلة في مارس (آذار) ١٩٢١ كما وقع بها الحزب الشيوعي الاسباني في دسمبر (كانون الاول) ١٩٢٤ .

فلقد قدم هذان الحزبان الوضع بشكل مضحم ولم يفهما بأن « عشرات ملايين الرجال لا يقومون بالثورة بمجرد ان ينصح الحزب بذلك » وان « الطليعة وحدها لا تستطيع تحقيق النصر » وان « الرجال لا يشنون الثورة تحت الطلب ، ولا يفعلون ذلك الا عندما يعيش الشعب في وضع لا يحتمل . عندما تندفع عشرات ملايين الرجال ، ويحطمون كافة الحواجز القديمة ، ويعلنون على استعداد لخلق حياة جديدة » (٧) . لقد اندفعت الطليعة في كلا الاستعاضتين مع مفرزة صغيرة من الطبقة العاملة الى قلب المعركة الحاسمة دون ان تعرف هل ستقف خلفها الطبقة العاملة معها وتدعم خطواتها أم ستخلي عنها .

ان الانقلابية بالمعنى الذي تحدثت عنه هذا عمل خطير ، يعرض الحزب والطبقة والثورة كلها لهزائم عنيفة ، وتسمح للثورة المضادة بشن تجلمات قمع تدفع الجماهير ثمنها ، وتكون نتيجتها انحسار المد الثوري لفترة طويلة من الزمن . ولا يمكن صيانة الحزب من الوقوع في مثل هذه الاخطاء ، الا اذا كان على رأسه قادة ذوي الامور بموضوعية ، وتستطيع تحديد درجة نضج الوضع الثوري ، وتملك القدرة على تحريض الجماهير واشراكها في المعركة ، وتأمين تناسق العمل الجماهيري مع الانتفاضة المسلحة نفسها على اعتبار الانتفاضة المسلحة تصعيدا لهذا العمل وجزءا منه – لا عملا عسكريا منعزلا عنه .

مسألة تحديد لحظة اندلاع الانتفاضة

في عام ١٩٠٥ ، وقبل انتفاضة دسمبر (كانون الاول) جرى جدل طويل بين لينين وجماعة الايسكرا الجديدة ، وخاصة مارتينوف حول مسألة : هل يمكن تحديد الانتفاضة بتاريخ معين . وكان الوضع آنذاك يسمح بمثل هذا الجدل . اما الان وبعد انتصار الثورة البلشفية واندلاع العديد من الانتفاضات فقد حسم هذا الامر . وكلنا نعرف ان تاريخ البدء بانتفاضة بتروغراد كان يوم ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) عند افتتاح مؤتمر السوفييتات الثاني . وشهدت البلاد الاخرى تحديد تاريخ الانتفاضات البروليتارية بكل دقة ، وجرى سيرها حسب خطة مرسومة . ومن المؤكد انه يستحيل على أية قيادة اصدار الاوامر لشن الثورة او القيام بأية حركة ثورية ، لان ذلك كما رأينا ينبثق عن تواجد ظروف عديدة متشابكة « ولكن تحديد تاريخ الانتفاضة أمر ممكن تماما اذا ما أعددناها اعدادا حقيقيا كاملا ، وكانت الثورة قد نفذت على صعيد العلاقات الاجتماعية بشكل يجعل الانتفاضة ممكنة .. ويمكن تحديد تاريخ الانتفاضة اذا كان القائمون بتحديدها يملكون التأثير على الجماهير ، ويستطيعون تقدير اللحظة الملائمة بكل دقة » (٨) .

وليست الانتفاضة عملية عسكرية بحتة . انها حركة ثورية قوية ، واندفاع تقوم به الجماهير البروليتارية ضد الطبقات الحاكمة ، او اندفاع المجموعات الغفالة من هذه الجماهير – حتى ولو كانت تمثل أقلية داخل هذه الجماهير – شريطة ان تكون الجماهير وراءها بشكل مؤكد . ولا بد ان تنطبق العمليات العسكرية التي يشنها التنظيم القتالي لمنطقة الانتطباق على ذروة حركة الجماهير عندما تكون الانتفاضة أمام ظروف ملائمة للنصر . ان الوضع الثوري لا تكفي بحد ذاته لتأمين انتصار الثورة . ولا بد من حزب يقوم بتنظيم الانتفاضة المسلحة ، ولا يأبى السلطة من جراء نفسها ، ولا بد من أخذها عنوة . « ولا تسقط الحكومة القديمة لوحدها ، حتى في ذروة الازمة ، اذا لم تجد من يسقطها » (لينين) .

لقد فهم لينين فكرة ماركس الرائعة القائلة بان « الانتفاضة عبارة عن فن » قائم بحد ذاته . ولا شك في ان تقسيم لحظة الانتفاضة بشكل صحيح ، واعتبارها فنا يحتاجه الى عدد من التدابير السياسية والفنية والتكتيكية هو الذي جعل انتصار ثورة أوكتوبر ممكنة .

مسألة الاعداد السياسي

ومن أهم مسائل اعداد الانتفاضة مسألة الاعداد السياسي الخاصة بمعرفة من توجه جميع العمل السياسي نحو الاعداد العملي المباشر (السياسي والفني) للانتفاضة ومن تطرح الشعارات الملائمة لذلك . أي من تتم تحريك مركز ثقل التحريض العملي الجماهيري نحو شعارات الهدف النهائي لنضال الطبقات المستوعبة . ومتى تتم تركيز كل اهتمام الحزب على تعبئة الجماهير حول هذه الشعارات . والحقيقة ان هذه البداية تعني بداية مرحلة جديدة في حياة الحزب الثورية . وتحديد زمنها صعب كتحديد بداية الانتفاضة . فاذا ما بدأت قبل الاوان ولم تكن الوضع السياسي مؤهلا ، وكانت الجماهير غير متوثرة أو غير مستعدة لقبول شعارات النضال الحاسم والمشاركة في هذا النضال . ولم تكن العدو قد وقع في تناقضاته بعد ، سقطت الشعارات في الفراغ ، وفقد بديل الاتجاه كل معناه . كما ان التأخر في مسألة تحويل الحزب وعمله وسط الجماهير عمل يؤدي الى أسوأ العواقب ويعطل مسيرة الانتفاضة ، ويعرقل سير النضال كله .

ولا يستطيع الحزب ان يحسم مسألة الوجه السياسي نحو الاعداد السياسي للانتفاضة في الوقت المناسب الا اذا امتلك تحليلا صحيحا لوضع البلاد ، وارتبط بالجماهير ارتباطا وثيقا ، وعرف خفايا قوة الخصم ونقاط ضعفه ، حتى يكون قادرا على توقع اقتراب الوضع الثوري ، وبدأ الاعداد السياسي في الوقت الملائم .

ومن أسباب فشل الثورة الالمانية في عام ١٩٢٣ عجز الحزب الشيوعي عن فهم معنى احتلال القوات الفرنسية للرين والروهر ، وعدم توقع الوضع الثوري المباشر ، والتأخر باجراء التحول السياسي بشكل جعل الجماعات العمالية البروليتارية غير ملائمة مع الجماهير ، ولا تملك الكوادر القيادية او الاسلحة اللازمة . وبعدم الحزب الشيوعي الصيني مثالا مماثلا . فلقد فهم بعد انتفاضة شنغهاي الثانية في فبراير (شباط) ١٩٢٧ ان اللحظة غدت ملائمة لانتفاضة ثورية جديدة ، فاستعد رغم كل الصعوبات بشكل أدى الى نجاح انتفاضة شنغهاي الثانية في ٢١ مارس (آذار) ١٩٢٧ .

وأفضل مثال على تحول الاتجاه في الاعداد السياسي هو مثال الحزب البلشفي الروسي في عام ١٩١٧ . فمنذ قدوم لينين اتجه استعداد الحزب كله نحو استيلاء السوفييتات على السلطة . وسارت اعمال الحزب السياسية والتنظيمية نحو اعداد الجماهير لهذه الغاية ، واسقاط فكرة زينوفييف كامينيف . ولم يأت الوضع الملائم في أوكتوبر (تشرين الاول) من الظروف الموضوعة فحسب (استمرار الحرب ، الازمة الاقتصادية ، الثورة الزراعية .. الخ) ، ولكنه نجم أيضا عن تأثير الحزب على الاحداث ، وتربيته الثورية للجماهير ، وعمله التنظيمي بين صفوف الشعب والجيش والاسطول .

الانتفاضات الجزئية

لا تتبع الثورة خطا مستقيما ، ولكنها تتعرض للمد والجزر ، وتمر بشر ذرى وانتصارات وهزائم مؤقتة حتى تصل الى النصر النهائي . وتفرض البروليتاريا خلال هذا الصراع الطويل . وتعلم كيف تقدر قوتها وقوة خصمها . وتخلق بفضل هذه التجربة ساستها وتكتيكها . ثم تندفع بزخم جديد لتحقيق أهدافها الاساسية .

ولا تنفي اعتبار هزائم البروليتاريا المؤقتة مجرد هزائم . اذ تحمل كل واحدة في طياتها عناصر نصر مقبل اكيد . لقد قال انجلس : « الجيوش المهزومة مدرسة جيدة » وتنطبق هذا القول كل الانطباق على الجيوش الثورية التي تضم عناصر مختارة من الطبقات المتقدمة (لينين) .

ولولا تجربة عام ١٩٠٥ لما امكننا تصور نجاح ثورة ١٩١٧ . ولولا تجارب البروليتاريا الصينية الطويلة لما وصلت الثورة الصينية الى النصر النهائي . من هذه الزاوية ينبغي علينا ان نطرح مسألة الانتفاضات . ولا نقصد بذلك الانتفاضات العامة ، بل الانتفاضات الجزئية الناجمة عن النضال الجزئي (غير الشامل) الذي تشنه البروليتاريا والفلاحون المسحوقون ضد الطبقات المسيطرة .

ولقد كتب لينين في عام ١٩٠٦ مقالة « حرب الانصار » وتحدث فيه عن الحرب الاهلية الطويلة وكيف انها تضم سلسلة من المعارك الكبيرة والفواصل الزمنية المليئة بالمناوشات . ولا يمكننا ان نتصور رومانسية حالة ان هذه المناوشات ظاهرة دائما لا يخللها اي فشل او هزائم مؤقتة وقد تحمل الطبقات المضطهدة السلاح ضد الطبقات الحاكمة دون ان تحقق انتصارات حاسمة ، ولكنها توصل الى تحقيق بعض المطالب الجزئية .

ويوهم البعض ان على المضطهدين ان لا يحملوا السلاح الا اذا كان النصر النهائي مضمونا بشكل اكيد . ويرفض الماركسية – اللينينية هذا الوهم . فالانتفاضة المسلحة عملية « تعتمد على مبادئ الفن العسكري » ولذا فهي تحوي كل عمل عسكري على قسط من المغامرة . وقد تسقط الانتفاضة في الفشل ، وهذا أمر طبيعي ومحتمل والمهم هو ان تتعلم الطبقات المضطهدة من فشلها دروسا ، وتنهض من جديد لشن نضال جديد .

وعندما تحدث كوغلمان عن كومونة باريس وابدى تشاؤمه وشكوكه واعتقاده بعدم نجاح الباريسيين . كتب ماركس له رسالة قال فيها : « لو لم يخض الناس الصراع الا بعد التحقق المطلق من النصر لكان خلق التاريخ أمرا في غاية السهولة » .

لقد طرحت بورجوازية فرساي العذرة أمام الباريسيين الاخبار التالية : قبول التحدي ، أو الاستسلام بلا قتال . ولو قبلت الطبقة العاملة الحل الثاني لنجم عن ذلك انهيار معنوي يفوق ضرره خسارة اي تحد من الزعماء » (٩) .

لقد شهد عصرنا حالات عديدة اضطر فيها المضطهدون الى حمل السلاح والتصدي لقوات الثورة المضادة رغم انعدام فرص النصر وهم لم يفعلوا ذلك بمحض ارادتهم ، بل تصرفوا تحت ضغط عدد كبير من الظروف واستفزازات الطبقات المسلطة . فما هو دور الحزب البروليتاري الطليعي في مثل هذه الحالات ؟ وما هو دوره بصورة عامة ؟

دور الحزب الطليعي

تأخذ الحزب الطليعي على عاتقه أخطر اجزاء اي نضال جماهيري ، او اي نضال مسلح . وهو يقف في مقدمة الجماهير ويقودها بعض النظر عن ظروف هذا النضال وامكانية الظفر او الفشل .

ان من واجب الحزب الطليعي ان يفكر كثيرا قبل بدء القتال . وان يلائم تحريضه الثوري مع تقسيمه للظروف . ولكن ما ان يبدأ الصراع المسلح حتى يصبح من واجبه العمل بلا تردد ، دون ان يتساءل هل يجب دعم هذا الصراع أم لا . والموقف المطلوب من الحزب هنا هو موقف ماركس خلال كومونة باريس ، وموقف لينين خلال أحداث يوليو (تموز) في بتروغراد . فمنذ دسمبر (أيلول) حذر ماركس الباريسيين وطالبهم بعدم القيام بالانتفاضة التي كان يعتبرها حمقاء مقدما . ولكن ما ان اندلعت الانتفاضة حتى وقف معها بكل قواه . وكتب ماركس خلال نضال البروليتاريا الباريسية ما يلي : ←